ضباب ...

قصة بقلم ديزي الأمير

لفت المنديل الصوفي حول رأسها وربطته باحكام ليستطيع مقاومة الهواء واسرعت في المشي تريد الوصول الى بيت صديقتها وعلى الاصح الى غرفتها .

كانت الشمس قد غابت منذ ساعات . فهي ، اذا بزغت ، تغيب مبكرة جدا في هذا البلد الغريب ، مع ان الساعة لم تكن قد تعدت السادسة مساء بكثير.

وأحست الهواء يقرص وجهها فسحبت غطاء الرأس فوق جبينها وقرب وجنتيها وغطت به معظم وجهها . كان البرد لا يزال شديدا وموجة ضباب بدأت تتكاثف . وشعرت بوحشة . ليتها تصل سريعا لتنسى البرد والظلام والوحشة .

كان الشارع مزدحما بالمارة وقالت في نفسها : انهم متعودون على البرد وعلى الظلام المبكر . وهي .. ستتعود . يجب ان تتأسى او تتناسى البرد والظلام والشعور بالوحشة . فعليها ان تمضي سنوات في هذا البلد قبل ان تعود الى الشمس والدفء والاهل والطمأنينة ...

نعم .. الشمس والدفء والاهل .. ولكن أتراها كانت طمأنينة ما أحسته ؟ لو كانت كذلك لما هربت منها وجاءت الى حيث تتحمل البرد والظلام والوحشة . لقد جاءت تبحث ايضا عن الطمأنينة ولكن أتجدها؟

لو كان الفرد يستطيع ان يسافر ويترك خلفه كل شيء .. لو يترك وراءه نفسه . وما فائدة ان يسافر اذا حمل نفسه معه ؟ ما فائدة ان يهرب وما يخيفه ويفزعه معه ؟

وجاءت موجة هواء أطاحت بمنديل رأسها فرفعت رأسها تعيد احكام تغطيته ورأت موجة الضباب قد تكاثفت كثيرا ، وزادها هذا شعورا بالضياع .. وسمعت سعال المارين .. اذن ستعود موجة الضباب الشديد وستعود اخبار ضحاياه تحتل أعمدة الصفحة الاولى من الصحف.

في الاسبوع الماضي كان ضحايا الثلج هم ابطال الساعة ، وقبلها الجليد وقبلها المطر .. وهكذا لكل مناخ ضحاياه .. وبلادها ... بلاد الشمس والدفء ، أليس لها ضحايا ؟؟ الناس هناك يعيشون مع أهلهم وفي بيوتهم المدفأة بالشمس والحنان وهم يموتون في اليوم مرات ضحايا للشمس وضحايا للحنان وضحايا للاهل .

كان البرد يجمد اطراف أصابع يديها وقدميها فوضعت يديها في جيبي معطفها تبحث عن الدفء وتمنت لو تجد مكانا دافئا تحشر فيه قدميها حين سمعت صوتا يقول بانكليزية ركيكة : أتحبين مشاهدة فيلم سينمائي ؟

ولم تدر كيف خرجت منها كلمة لا .. قالتها بكل ما تستطيع ان تحمل الكلمة من غضب وكبرياء واعتذار وقسوة . قالتها وهي تحس موجة غضب تصفعها واستمرت تمشي دون ان تدير وجهها لترى السائل. فعاد الصوت يسأل بمذلة : ولم لا ؟ أدارت وجهها لترى رجلا ضئيلا أسمر يبتسم لها في استعطاف أبله ، ولم تكلف نفسها هذه المرة جوابا واسرعت تمشي تكاد تركض والغضب قد تمالك جوانب نفسها . من هذا الغبي الذي يظن ان دعوة من عابر طريق ستلقى رضى عندها ؟ كيف خيل له انها قد تلبي دعوته ؟ واحست بكرامتها وكبريائها يدفعانها الى العودة والتفتيش عنه في هذا الظلام والضباب والبرد .. تعود لتفهمه من هي ومن أي بيت جاءت ومن في بلادها ممن يتمنون لو ردت لهم تحيتهم .. وتمنت لو تراه الان وتسمع دعوته لتلقي عليه محاضرة عن بلادها والفتيات هناك وتربيتهن المحافظة ومكانتهن في المجتمع. أيظن ذاك الابله انها ستركض اليه تشكره وترحب بدعوته دون تردد ؟ ليته يعود يعرض دعوته ثانية . ان كلمة « لا » مع كل ما حملتها من كبرياء وغضب واحتقار لم تكن كافية .

ولكن هل يوحي شكلها بانها من الفتيات الرخيصات بحيث تقبل أية دعوة من أي عابر سبيل ؟

وتذكرت انها تغطي معظم وجهها ، فالغريب اذن لم يدعها اذ أوحى له شكلها بالابتذال ولكنه اراد دعوة اية فتاة ما دامت ستخفف عنه وحشته . وزادها هذا حنقا . اذن فقد تساوت مع بقية الفتيات ولم تعد لها اهمية خاصة كالتي كانت تجدها في بلادها !! صدق من قال الغربة تضيع الاصل .. الغربة تضيع الاصل .. لو حاولت ان تترجم هذا القول لاهل هذه البلاد ، ماذا سيفهمون منه ؟ ولو حاولت شرحه للغريب الذي دعاها ؟؟ الغريب !! الغريب ! أنه أيضا غريب .. غريب مثلها.. وقد ضيع أصله كذلك حين تغرب هنا .

وعادت صورة الشخص الاسمر النحيل بصوته المنسحق. لقد كان ضعيفا وهزيلا ومحزونا وكان في صوته نبرة توسل مؤلمة وخاصة حين عاد يسأل ولم لا ؟

أتراه قصد استرخاصها حين دعاها أم انه ضحية اخرى من ضحايا الوحشة ؟ قد يكون فكر طويلا قبل ان يعرض هذه الدعوة وقد مرت به فتيات كثيرات حاول ان يعرض عليهن دعوته ولكن شجاعته خانته. وكان من نصيبها هي ان واتته الشجاعة . لمَ تغضب عليه هذا الغضب كله؟ أما كفاه اللهجة القاسية التي لفظت بها كلمة لا ؟

وتصورته امامها يمد يده بطلب معونة . لو طلب منها مساعدة مادية ، اما كانت تقدمها بكل رحابة صدر ؟

وهو الان يحتاج رفقة فطلب صحبتها . لعله لم يكلم أحدا منذ أيام .. قد يكون آتيا من بيت مرتب وعائلة محافظة كعائلتها ولكنه انسان يشعر بالوحدة تماما مثلما تحس هي. لقد تركت غرفتها الدافئة واسرعت في هذا البرد والضباب والظلام ساعية الى صديقتها تريد ان تزيل بالحديث اليها الخوف من الوحشة ..

وهو ، أليس انسانا من لحم ودم ؟؟

ربما كان مرفها مدللا في بيته . وتذكرت اخاها حين كان مسافرا وهلع امها عليه كلما فكرت انه بعيد عن الاهل والوطن والاحباب. كانت أمها ترسل لاخيها معمولات بيتية وشرقية وتلح عليه ان يختلط بالناس وان يهدي اليهم ما ترسل له علهم يخففون عنه بعض شعور الوحشة. وكانت امها ترسل خطابات شكر لكل الناس الذين يدعون ابنها لزيارتهم. وكانت تقول لها ولاخواتها : أنتن لا تعرفن معنى ان يستقبل الغريب بيت دافيء آهل بالناس .

وهي الان تعرف ما معنى الوحدة ، وما معنى الغربة والبرد. ما كان ضرها لو رفضت دعوة الشخص الغريب الاسمر الهزيل بصوت ليس فيه كل تلك القسوة ؟ ماذا لو أتبعت كلمة لا بكلمة شكرا دون ان تحملها معنى الامتنان كما يستعملها الناس هنا ؟؟ او حين يريدون التعبير بها عن شتيمة مؤدبة ؟

وتخيلته في بيته بين أهله وأمه تحيطه بكل حنان ورعاية وتخشى ان تختطفه الفتيات منها .

ربما كان مترفعا متكبرا في بلاده ولكن الغربة أذلته والوحدة أنزلته

عن كبريائه فجاء يستعطف المارين ويستجديهم كلاما ! وهي .. لم تحس أي شيء من هذا ، كان كل ما احسته الاهانة .. اهانة ان يتطاول هذا الغريب الالكن على عرض دعوته .

انه سيء الحظ هذا اليوم . فهنا عشرات من الفتيات يرحبن بأي دعوة من اي عابر سبيل ولو كان قد عرض دعوته على واحدة منهن لكان الان يجد اصفاء او يكون متابطا ذراعا دافئة او قد يكون في بيت. ورفعت رأسها تفتش عنه بين المارين فلم تر أحدا وسمعت اصواتا فقط. كان الضباب يتضاغط بشدة ، وميزت في الاصوات اصوات نساء ورجال. اذن فقد وجد البعض رفيقات ووجد بعضهن رفقاء . والغريب الاسمر النحيل ذو الصوت المنسحق هل وجد فتاة تصاحبه ؟ وتمنت لو تراه بصحبة فتاة اذن لاحست براحة واطمئنان عليه.

وعبرها رجال يسيرون وحيدين وكذلك فتيات يسرن فرادى. الوحدة مرض هذا البلد . هناك وحيدون كثيرون غير الغريب الاسمر ذي الصوت المستعطف ...

وخفف التفكير في العدد الكثير من الوحيدين شعورها بالذنب.

وسارت تخترق سيطرة الضباب وحين حاولت ان تستبين معالم الطريق اكتشفت انها ضائعة لا تدري كيف تصل الى صديقتها . وقضت حائرة تحدق في الضباب فلم تر أحدا ، وأصاخت سمعها فلم تسمع صوتا . الطريق خال وقد لا تجد بسهولة من يرشدها . ولم تدر أين هي فهي لا تستطيع حتى ان تعود الى بيتها . وبدأ قلبها يخفق بشدة. وأحست بالاختناق وتمنت لو تسمع صوت سعال او صوت اقدام او لو تسمع صوت دعوة من عابر طريق . ظالما جاءت تزور صديقتها وكانت تظن ان قدميها تقودانها دون حاجة الى التفكير في تفرعات الشوارع. فكيف ضاعت الليلة ؟ وما الذي ضيعها ؟

أهو الضباب ؟ انه الضباب وشيء آخر . لقد انتقمت السماء للغريب الاسمر الهزيل ذي الصوت المستعطف بان تركتها ضائعة تائهة لا تجد مخرجا لها في هذا الضباب . ورفعت رأسها تستجير بالسماء فلم تجدها . ومع ذلك فقد صلت لها وطلبت منها ان ترسل لها من تسأله عن الطريق، واذا بها تختم صلاتها بالتعهد لله بأنها لن تكلم غريبا مستوحشا بلهجة قاسية بعد الان .

وحجب الضباب الكثيف وصول صلاتها الى السماء فوقفت تنتظر .. وطال انتظارها ففكرت بالعودة علها تجد معالم الطريق الى غرفتها بالقهقري فلم تدر كيف تتجه ، وخيل لها انها ستبقى تائهة الى الصباح. ثم قررت ان تستسلم للقدر لعل الاستسلام له يرضيه . ووقفت فترة لا تدري طولها قبل ان تسمع صوت اقدام . لم تسمح لنفسها بالفرح خوف ان يكون سمعها يخدعها ولكن الصوت المطمئن وضح .. نعم انها صوت اقدام ، وسحبت المنديل الصوفي عن رأسها تمتع اذنيها بصوت حركة بشرية ، ولم تفكر اول الامر بالقادم ، يكفي ان تجد انسانا تكلمه وتسأله عن الطريق فيدلها عليه : وحين اقتربت الاقدام أحست بفرح وخوف معا : فقد ميزت فيما رأت شبح شخص طويل القامة عريض الكتفين وتمنت لو كان شرطيا .. ولكن القادم لم يكن شرطيا ومر بها دون ان يتوقف او يتكلم او ينظر اليها. وتطلعت اليه يبتعد عنها والخوف عاقد لسانها . وبجهد استطاعت ان تنطق وتناديه فعاد ووقف امامها يعرض عليها مساعدته . سألته عن شارع بيتها فأخبرها عن عدد الامتار التي يجب ان تسيرها قبل ان تستدير الى اليمين ثم عدد المنعطفات التي يجب ان تترك قبل ان تستدير الى اليسار وختم كلامه معلقا على الجو : انه ضباب كثيف .

وكانت لا تزال تتمتم بعد قائلة : نعم انه ضباب كثيف ، حين سمعته يتمنى لها ليلة سعيدة .

وبالرغم من انها عرفت طريقها ، فقد ظلت تحس بأن الضباب يملأ عينيها وقلبها وروحها .

لندن — ديزي الامير